الكتاب

إذا بلغت الحضارة أوجها في أمة جعل أهل الرقي التأليف المتبحر يصنعون المصنفات في الموضوعات التي لا تخطر على بال أحد في مجتمع غير راق ومن كان يظن أن أبا عمرو بن بحر الجاحظ البصري يؤلف كتاباً في مدح الكتب والحث على جمعها (١) عدا ما وقع له من ذكرها مراراً في كتبه قبل زهاء ألف سنة ولكن ما كتبه الجاحظ في تلك الأزمان كتبه مؤلف هذه الأيام ببيان أشفى ومادة أوسع لارتقاء هذه العصور واختراع الطباعة التي عممت المطبوعات وسهلت التأليف والنشر ولا سيما على من كان مثل مؤلف الكتاب الذي صدر قبل شهور في جملة مجلدات الشيوع الرسمية في مكتبة نظارة المعارف في باريز

قسم كتابه إلى أقسام فتكلم على حب الكتب والمطالعة والكتب في الأزمان السالفة والقرون الوسطى قبل اختراع الطباعة في عصرنا هذا وتأثير بعض المؤلفين في بعض وما يجب أن يطالع من الكتب وكيف يجب أن يطالع أو يقتنى وتوجد ممكنات الحفظ على بعض الكتب وهل ينبغي الاستكثار من الكتب أو الإقلال منها وكيف تختار الكتب وهل يجب الإكثار من المطالعة أو الإكثار من قلة المطالعة وتكلم على الكتب الرديئة والكتب البسيطة والقديمة والحديثة والاستشهاد بالكتب وتاريخ الكتب وذكر الروايات والصحف وتكلم على المجانين بالكتب (٢) [illegible] والمحبين بالكتب [illegible] في الكتب [illegible] وأعداء الكتب [illegible]

(١) المقتبس م ٣ ص [illegible]

(٢) المقتبس م ١ ص ٨٣

وعن التشدد في أعداء الكتب والإملال في إعارة الكتب وردّها وقصّها وطيّها وتصويرها وتجليدها وأبوابها وترتيبها في خزائنها العامة وفهرستها وتنسيقها وكيفية استعمالها وحفظها وطبعها واختصارها

هذه أهم ما تدور عليه أبحاث هذه المؤلفات الهامة الممتعة ويرى مؤلفها أن لا ينحصر في الكتاب على التماسه لسانى الظرف وحفظه في الرحال والنظر إليه كالجواب والعطاف في أنه خلق ليقرأ ويتدبر ما فيه ويهتدى بما قال [illegible] أنه [illegible] الدرس والمطالعة والقراءة وقوة ليس إلا هو واسطة الكمال العقلي والأدبي فلا مراء أنه لا أفضل من محبة الكتب ومحبة الآداب بحال وإن ثبتت قبل من محبة المال والخمر والعمل والحق فمن هذه الأمور [illegible]

وقد اختار المؤلف في أن معظم كتابه ليس من قلمه بل هو عبارة عن المقتبسات وأقوال أئمة العلم والأدب في كل عصر ومصر وذلك لأن الاقتباسات بكلام الرجل نفسه [illegible] من الوقع في النفس أكثر من إحالة الطالع على الرجوع إلى ما كتبه المؤلف [illegible] فوق العلم وقال [illegible] الكتاب لأجل الأعتقاد إلا معرفة إيراد الشواهد [illegible] كل أحد من أرباب العقول الصحيحة أن يعلم من فرع [illegible] من كل عالم مستقل من موارد [illegible] الاقتباسات حيث يجب الا [illegible] الشواهد [illegible] في الحقيقة [illegible] كلام [illegible] وحفظ النفس [illegible] كل كتاب [illegible] الشواهد وكان [illegible] الخطيب [illegible] الذي [illegible] لا [illegible] الكتب [illegible] علينا [illegible] من الاقتباسات [illegible] لا قصر في هذا السبيل

وقد سار مؤلفنا في مصنفه الجليل على هذه الطريقة شأن معظم الكتاب الذين لا يكتفون إلا بتصحيح الأسناد وإيراد الشواهد والنوادر فيقرأ القارئ فيه من أسماء الكتب المؤلفة الافرنجية في هذا البحث ما يدل على أن العربي اليوم يحوم في كل ثمرة ويحمل [illegible] من الدرس والبحث حتى جاء كتابه آخذا من كل ثمرة [illegible] ومن كل حديقة زهرة

قال في تاريخ الكتب انه لا يعرف في الحقيقة الا منذ ثلاثة آلاف سنة وان قال أحد علماء الالمان بوجود الكتب قبل الطوفان ووضع لذلك مصنفا فتاريخ الكتب يرد الى عهد ملك مصر اوسيماندياس الذي يرى علماء الآثار المصرية اليوم انه هو رعمسيس الثاني أو سيزوستريس وكان له خزانة كتب جعلها في قصره في ثيبة كما قال المؤرخ ديودور الصقلي وقد حكى عن وجودها من أنه كان مكتوبا على الحجر في أعلى باب هذه المكتبة [illegible] دواء النفس . ووصف تلك الكتب أجمل وصف وأحسنه [illegible] ولا يمكن أن يقال أحسن منه . ومضت على [illegible] حتى جاء [illegible] موتسكيو في القرن الثامن عشر فقال [illegible] حق [illegible] المطالعة أرفع [illegible] ثم جاء [illegible] القصص الانكليزي [illegible] في القرن التاسع عشر ووصف [illegible] بعض [illegible] بعض الامراض وأن المداواة بالكتب كانت [illegible] قال [illegible] في وسط الاسطبل في [illegible] المكتبة التي علقها [illegible] على مكتبه [illegible] (١٠٦١ – ٥٢٧ ق م) مكتبة عامة في آثينة وفي أول مكتبة [illegible] جمع فيها أشعار هوميروس [illegible] من قبل الاغارقة القصاصين والشعراء . ويوجد [illegible]

المؤرخ استرابون (قبل المسيح بخمسة قرون) أن الكتب كانت منتشرة جدا في جميع مدينة أثينا . وقال كسينوفون في الذكريات ان سقراط شاهد الكتب والقواميس والخرائط

واستعمل ايسيدوروس على نحو ذلك الزمن (٤٤٠ ـ ٣٩٦ ق . م) طريقة لا تخلو من الحذق يحسب أثناء وصفه في الكتب فدخل مدرسة خاصة بمراسلة العلم وسأل المعلم أن يأتيه ببعض كتب هوميروس فأجابه ان ليس عنده ولا واحد منها فصفعه وخرج . وكان الاسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٥ ق . م) مولعا من وراء الغاية بدرس أشعار هوميروس وبعد أن هزم دارا ملك الفرس وقع اليه سفط كان بين أسلاب المغلوب فسأل خاصته ماذا ينبغي أن يجعل فيه من مال أو متاع فاختلفت آراؤهم فقال لهم : انه ليضم فيه الالياذة هوميروس تحفظ فيه حفظا جديرا بها . وكان الاسكندر أثناء رحلته الى آسيا أمر أن تجلب له تواريخ فيلبس وأوحيات ويوربيدس وسوفوكليس واخيلوس وبعث بها الى استاذه ارسطو كاتب الاولى هنا سبب خاتمة وذلك سبب سعادته . وأنشأ بطليموس سوتر أحد خلفاء الاسكندر الذي استأثر بملك مصر عندما قسمت المملكة اليونانية مكتبة الاسكندرية وهي خير واغنى مكتبة في الأزمان السالفة وكان ذلك باشارة ديمتريوس فاليري (٣٤٥ـ٢٨٣ ق . م) ويروي المؤرخ ... أن أول قيم على هذه المكتبة وحرى خطاء من أشد المتعصين المحبة لهذه المكتبة ولا سيما بطليموس الثاني فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧) وبطليموس الثالث اورجيتس . وكانوا يستخدمون صناعة ورق البردي لتدوين الورق عليهم . واستخدموا كثيرا من النساخ وراءها . وكانوا يستكتبون من البردى الآلاف متعددة من الكتب ولا سيما الحكام والمستعار من

مكتبة آثينة كتبا لشعرائهم وللاستعانة في تنقيحها وترجيح الاصل على الارجح خطأ ثانية عنها و بطليموس الثاني فيلادلفس — ولقبه بذلك استهزاء لانه قتل أخوته ، أو لانه تزوج أخته — هو الذي أمر بترجمة كتب العهدين المقدسة الى الرومية بمعرفة سبعين من علماء بني اسرائيل ، وكانت الترجمة السبعينية من أهم حوادث التاريخ لاتصالها السبيل في انتقال اليهودية ومهدت للنصرانية

ولم تحرق مكتبة الاسكندرية التي قال بعضهم انه كان فيها نحو سبعمائة ألف مجلد على يد الامام عمر (١) ولا بأمره كما جاء في بعض التقاليد فان هذه الدعوى من الاغلاط التاريخية العظيمة اذ لم يكن أثر لهذه المكتبة عند دخول العرب مدينة الاسكندرية سنة ٦٤٠ وعلى عهد البطالسة كانت مكتبة الى نصفين قسمت شطرين جعل كل منها في مكان مستقل فحرق القسم الاول قضاء وقدرا عند ما استولى يوليوس قيصر على الاسكندرية سنة ٤٧ قبل المسيح وذهب القسم الثاني وكان جعل في معبد سيرابيس على يد الاسقف ثوفيل بعد ذلك التاريخ بأربعمائة سنة عقيب الامر الصادر عن تيودوس بالقضاء على جميع المعابد الوثنية وجعل عاليها سافلها

ومن المكاتب الشهيرة في القديم مكتبة فرغامس (برغامة) في آسيا الصغرى أسسها أومينوس الثاني من آل الاول قبل المسيح بمائتي سنة ويقول بعضهم انه كان فيها مائتا الف مجلد سلمها أنطونيوس أحد حكام الرومان الى كليوبطرة ملكة مصر من نسل البطالسة . وقد نقل كثير من الكتب من مكاتب آثينة والشرق الى ايطاليا وكانت المكاتب عند الرومان

(١) [illegible]

إلى التقريب من معابدهم. وأول مكتبة أنشئت في رومية على يد أزينيوس بوليوس، وأطماع في مدركهم في الإكثار منها. ومن بين من جمعوا خزائن الكتب العامة في قصورهم شيشرون. وتساوى في الشغف بجمع الكتب علماؤهم وجهلاؤهم وعقلاؤهم.

ويتكلم على الكتب على يد الوزارة والقوانين والخطوط والخطوط القرطبيين والقطالين، وعلى علاقتهم من الأقوام في القرون المتأخرة (١). وأما علماء وقادة بيانه في اختيار المصنفات وانتقاء الأجود منها فأتى على ذلك شيء مما قاله أهل العلم والحكمة منذ الأمد القديم إلى عهدنا هذا. فقال إن توسيديد حضر حفلة هيرودتس المؤرخ اليوناني تلا فيه على بعض أهل أثينة شيئاً من تاريخه فهز وطرب ولم يتمالك أن بكى وكان عمره خمس عشرة سنة وكان ديموستين يحلي في الربيع تاريخ توسيديد بنسخه بخطه الجميل ثماني مرات لربح النشوة في دقته ويطلع عليه. وكان الاسكندر الكبير يتوسد الإلياذة لهوميروس يحملها معه في حق ذهب ويضعها تحت المخدة مع سلاحه عند ما ينام وكان يتشرون يرى بولوسيكون أخص حظه في كل جزء من ضروب المطالعة وهي عنده كتب أفلاطون وأفلاطون وتتوافر كتب الغاية.

وكان شارلمان (٧٤٢–٨١٤) مشغوفاً بها يأمر بقراءة كتاب مدينة الله للقديس أوغسطين كما أن ألفريد الكبير ملك إنكلترا (٨٤٩–٩٠٠) نقل بنفسه قسماً من أروبة وترجمها شعراً إلى اللغة الإنكليزية. وكان دوق غلوستر همفري ابن الملك الشهير (١٣٩١–١٤٧٨) يحب كتب القدماء أحب شيء ولم يكن لأحد أن يخلص منها كتب مؤلفاته. وجعل ماكيافللي (١٥٠٠–١٥٥٨) كتب توسيديد عمدته في أعماله وكتب بخطه حركات كوميدية الإله الموضوعة.

(١) المقتبس ٦ – ٥٦٩

وكان كاتم السر وليم بامكرد (١٨٥٥-١٩٢٩) يقول إن الكتب الانكليزية دخلت في كتب اليونان والرومان والعرب وجميع رؤوس القرون الحديثة فلا يرى فيها كتابا يتعدى ما قاله الفلاسفة أرسطو وأفلاطون وإقليدس وبطليموس. وكان ملتون الشاعر الانكليزي (١٦٠٨-١٦٧٤) الأعمى يقرأ في الصباح شيئا من التوراة العبرية ثم يقرأ من شعر هوميروس. وقال إنه استظهره كله وحفظ نحو ثلاث مسائل كان يقرأ فيها كلها بدون أن يفهمها وكان يقول إن الكتب تكتب لغة واحدة ولكنه أراد بنا من تعليمهن القرآن له ما يجب.

وكان كورنيل الشاعر الفرنسوي (١٦٠٦-١٦٨٤) يؤثر مطالعة تيت ليف أحد المؤرخين اللاتين ويعجب بها خاصة وكان الشاعر اللاتيني لوكان الفيلسوف وبيع لافونتين الشاعر الفرنسوي (١٦٢١-١٦٩٥) يقرأ في الثانية العشرين قصيدة الشاعر مالرب فتجذبه الشعر. ولكن هذا الشاعر لا يصرف إلى مطالعة هوراس وفرجيل وترانس وكنتيليان وأخذ بعد ذلك يقرأ الكتب الفرنسية مثل رابله وبرنار وفولتير وقرأ من الإيطاليين أريوست وبوكاشيو وما كياڤيل وتاسو وسمعت تطالع مدام دي سيفينيه الكاتبة الفرنسوية (١٦٢٦-١٦٩٦) مطالعة الأديب نيكول ثم كورنيل وموليير. وكان الأخلاقي لابرويير (١٦٤٥-١٦٩٦) أيضا من مؤلفي هيرودوت وأفلاطون وفرجيل وهوراس ولافونتين وغيرهم من الكتاب والشعراء الأقدمين القدماء والمحدثين.

وكان الشاعر راسين (١٦٣٩-١٦٩٩) الشاعر وهو في السادسة عشرة أو السابعة عشرة الشعراء سوفوكليس ويوربيدس بقوة أفلاطون وبلوتارك من الأصل اليوناني. وكان وهو في المدرسة يقرأ رواية تيوجين وشاركله خليودور

اليوناني فلاحظه معلمه فتناول الكتاب من يده وألقاه في النار ثم اجتهد راجياً ان يحصل على نسخة ثانية من هذه الرواية فعامله بمثل ذلك ثم استحصل نسخة ثالثة وحده يخفيها ولما رأى شيئاً حمل النسخة الى معلمه وقال له يمكنك ان تحرق هذه كما حرقت اختيها لاني لا حاجة بي اليها

وقال الكاتب الفرنسوي سان أفرموند (١٦١٣ ـ ١٧٠٣) ان رواية دون كيشوت لسرفنتس هي من المصنفات التي استطيع الاولعها طول عمري دون أن امل ساعة وكنت أود أن أكون مؤلف دون كيشوت من بين جميع الكتب التي طالعتها ومن رأيي انه ليس من كتاب يساعد كثيراً على تحسين ذوقنا في كل الامور مثله ويظن ان كونفلد من حذاق المؤلفين واني لاعتبره زيادة لانه اراد أن يحرق جميع كتبه عندما قرأ دون كيشوت وكان يؤثر مؤلفها قال ثم اني رأيت ملازماً طول حياتي كتب مونتين وأشعار مالرب وروايات كورنيل ومصنفات فواتور

وقال الشاعر بوسويه (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤) عن المصنفات التي يتمنى وقدر له ان يؤلف مثلها قال كتاب « رسائل الولايات » لبسكال » وكان يؤثر شعر هوراس وكان بوالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) يفضل شعر هوراس المقام الاول ثم ياتي ويفضل مشاهير القدماء على مشاهير المحدثين ما خلا بسكال فانه عده في مصاف العظماء وكانت مكتبة الامير اللبنيوف الالماني (١٦٤٦ ـ ١٧١٦) عبارة عن مصنفات أفلاطون وارسطو وتوليد وسكتوس ميريكوس واقليدس وارخميدس وبلين وشيشرون وسنيكا وقد حرس منذ نعومة أظفاره الحاث القديمة وآثر النور على الاخذ من الشاعرين بت ليف وفرجيل حتى انه كان في شيخوخته يحفظ مائة فرجيل بالحرف الواحد

وكان مونتسكيو (١٦٨٩_١٧٥٥) يحب قراءة كتابات ديبيت هيرا وقال من نفسه اني لا اعرف لذة في القدماء وان الزمن القديم يسحرني ولا اقول اما ما قاله بليني كبار هؤلاء ذاهبون الى الآلهة بنجومهم الادبية وكان يحافظ على ولاء العامة بكتاب الملوك كما اني بكتب اشيل وارستيد وسوفكليس ويوربيدس وارسطو وافلاطون وشيشرون وسويتون وورجيل وغيرهم من القدماء كرسليوس ومونتين ولاروشفوكولد ويعتقد ان اعظم الشعراء افلاطون ومالبرانش وشافتسبوري ومونتين

وكنت ترى على منضدة فولتير (١٦٩٤_١٧٧٨) رواية الى راسين وكتاب الصوم الصغير لماسيلون وقال الفيلسوف ديدرو الفرنسوي (١٧١٣_١٧٨٤) في كلامه على القصصي الانكليزي رتشاردسون ان مطالعة كتبك في سوقي في جميع اوقاتي قد قصت على الضرورة ان ابيع كتبي لاعوزني الاحتي لاستبقيك منها والتبك في آث واعطامو سي وهوميروس واوريبدس وسوفكليس والتاوب قراءاتك مرات . وكان العالم بوفون (١٧٠٧_١٧٨٨) يحصي قراءة اعظم ارباب القرائح والعقول وقد حصرهم في خمسة هم نيوتن وباكون ولايبنتز ومونتسكيو وهو في جملتهم

وكان كانت الفيلسوف (١٧٢٤_١٨٠٤) يرى ان الارق انما يستولي على امرئ فليس لصاحبه الا ان يحصر فكره في موضوع واحد ما هو فكان يجلب النعاس الى عينيه أن يصور شيشرون وحياته وكتاباته وكان كيتي (١٧٤٩_١٨٣٢) يرى ان خير ما يقرأه حصته الاملي موليير ويقرأه وقال في هذا انه دعوة اسمه كما ان لويس الرابع عشر دعوها في السياسة وذلك لان الالسنة الاطفال عليها العهد تستطيل منها وقد يجمع جميع صفات احداثه

وكلاسيم وهكذا كان فولتير أعظم كاتب كانت فيه وبين منه بالسة وهو أعظم أديب على اختلاف العصور وأعجب مؤلف في الطبيعة

وسيحدث القراء بشيء من فوائد الكتاب بعد

مجامع الغرب

اشتقت لفظة المجمع التي هي تعريب أكاديميا الاوربية من أكاديموس بطل آثنة فكانت الأكاديميا هناك عبارة عن بيت خاص أو ملعب محاط بالأشجار حوى عدة تماثيل لتقديس الارباب ومنها محراب لربة الشعر أنشأه الفيلسوف أفلاطون فكان ينشره تحت ظلال أشجاره مع تلاميذه ولما كره في المنتزه العامة ولما هناك دفن في حديقة مجاورة لذلك المكان فدعي سيوسيبس عنده ثم اليوم ثم توسع في معنى الأكاديميا فصار يطلق على فريق رجال الادب والعلم وأرباب الفنون يجتمعون للبحث في موضوعات عامة بالعقل

هكذا كان شأن مجمع البطالسة في الاسكندرية ومجمع الاسرائيليين ومجمع الخلفاء العباسيين في بغداد والامويين في الاندلس ومجمع شارلمان وفرد الكبير الفرنسويين وكانت بعض هذه المجامع أشبه مدارس منها بمجامع علمية كما هي المجامع اليوم

نشأت في أوربا خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر مجامع علمية شعرية مثل مجمع طولوزيا احدى مدن ايطاليا (١٢٢٧) ومجمع المناظرات البديعية في طولوز من فرنسا (١٣٢٣) ولم يعن في ذلك المجتمعين بغير الشعر لأن الشعر والادب هما أول ما تعنى به الامة وتحرص عليه قبل أن يكون عندها البحث في العلوم التي هي قوام الجمعيات البشرية